جامعة بيرزيت
BIRZEIT UNIVERSITY MUSEUM
متحف جامعة بيرزيت

مجموعة توفيق كنعان

الموارد / منشورات عن توفيق كنعان

المصدر: نمر سرحان، "دراسات توفيق كنعان في الفولكلور الفلسطيني"، **شؤون فلسطينية**، ع. 16 (كانون الأول/ديسمبر 1972: 128-136).

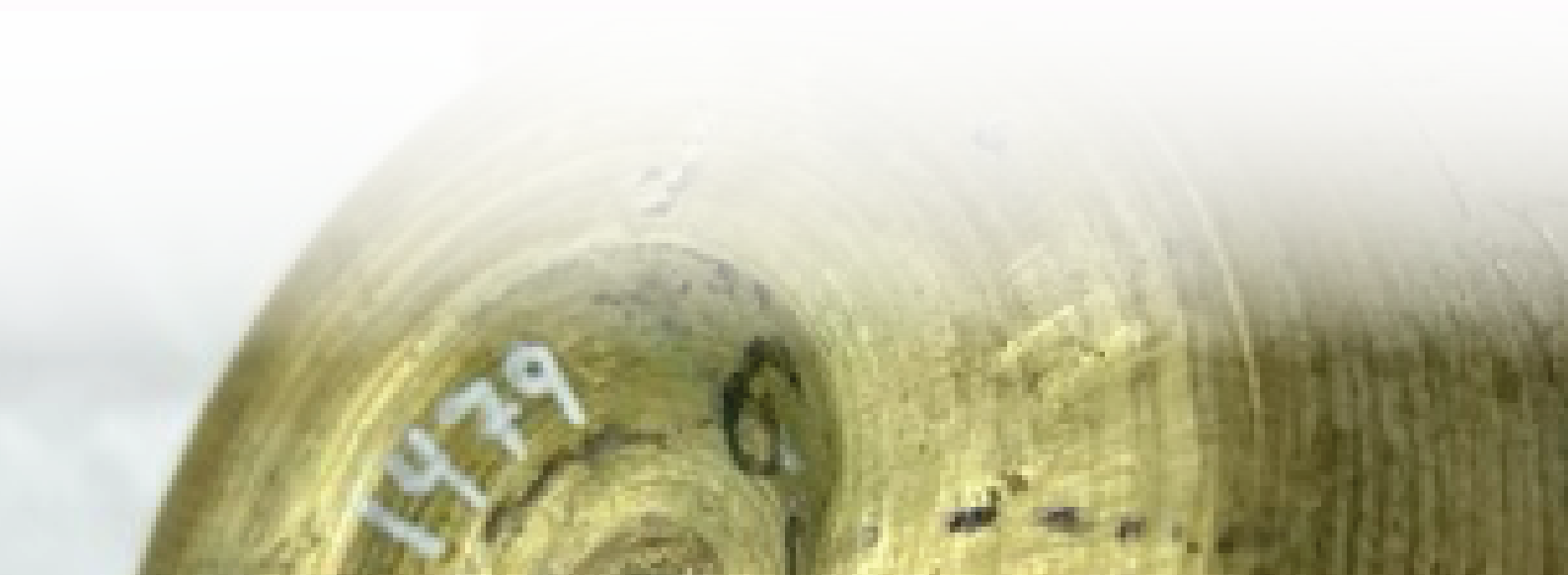

شؤون فلسطينية

١٦

كانون الاول (ديسمبر) ٢

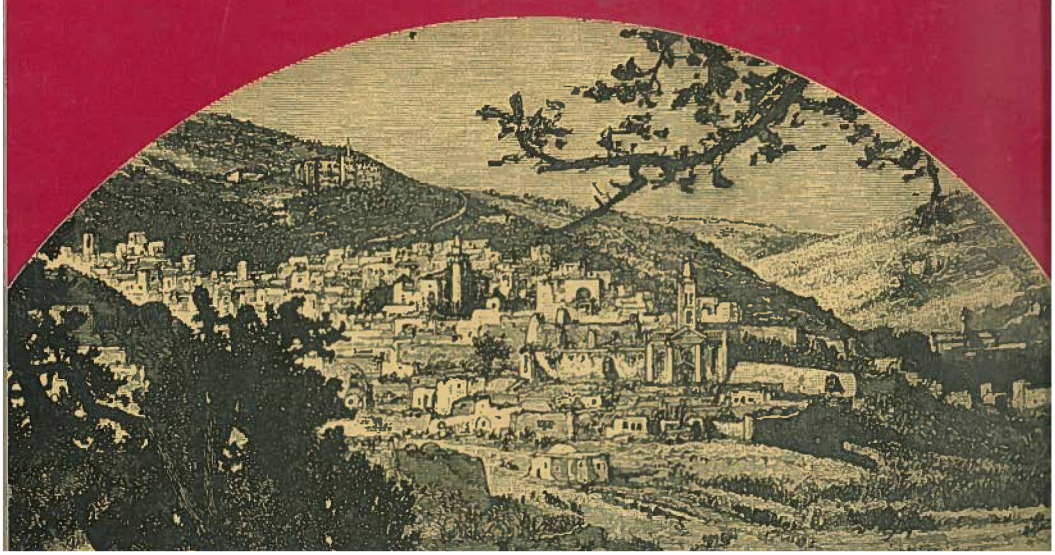

شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ١٦ — كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٢

دورية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر شهريا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

هيئة التحرير : المقدم الهيثم الايوبي ، بلال الحسن ، د. سعيد حمود ، احمد خليفة ، الحكم دروزة ، محمود درويش ، د. يوسف شبل ، د. نبيل شعث ، منير شفيق ، د. صادق العظم ، ناجي علوش ، حبيب قهوجي ، د. محمد المجذوب ، عبد الحفيظ محارب ، د. حنا ميخائيل ، هاني الهندي .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحات ، بيروت .

ثمن العدد (بريد جوي) : ٢١/٢ ل.ل. في لبنان وسائر الوطن العربي، ٤ ل.ل. في آسية وافريقية واوروبة ، ٦ ل.ل. في الاميركتين واوسترالية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٣٠ ل.ل. في لبنان والوطن العربي، ٥٠ ل.ل. (١٦ دولارا اميركيا) في آسية وافريقية واوروبة، ٨٠ ل.ل. (٢٦ دولارا اميركيا) في الاميركتين واوسترالية. (بريد عادي) ٤٠ ل.ل. (١٣ دولارا اميركيا) في سائر الدول الاجنبية .

يعطى حسم ٥٠٪ (عدا البريد) على الاشتراكات للمقاتلين والعمال اذا جاءت الطلبات من خلال التنظيمات او النقابات او الاتحادات .

صورتا الغلاف : بيت لحم والناصرة ، في القرن التاسع عشر

المحتويـــات

صفحة ٥ — **جان جونيه : أحاديث عن الثورة الفلسطينية .**

٢٨ — **الخروج من ساحل المتوسط** ، محمود درويش .

٣٤ — **النفط العربي في استراتيجية المجابهة العربية الاسرائيلية** ، الدكتور يوسف عبدالله صايغ .

٧٤ — **القوى السياسية الفرنسية والمسالة الفلسطينية** ، داود تلحمي .

٨٨ — مـــن الآثار غير المنشـــورة للشهيد غسان كنفاني : قصتان (١) **الاعمى والاطرش** و (٢) **العاشق** .

١٢٨ — **دراسات توفيق كنعان في الفولكلور الفلسطيني** ، نمر سرحان .

١٣٧ — **المتمردون على الخدمة العسكرية في اسرائيل** ، عبد الحفيظ محارب .

١٥٠ — **ملاحظات حول تجربة الاتحاد العام للمعلمين الفلسطينيين**، شحادة موسى.

١٦٣ — **مستقبل الثورة الفلسطينية ودور الشباب العربي فيها .**

١٧٠ — **لقاء مع النقابيين الفلسطينيين القدامى** ، اعداد بلال الحسن .

١٨٩ **مراجعات** : ماركس والمسالة اليهودية ، ماجد نعمه . لا سلام حول اسرائيل ، الدكتور عدنان العمد . تربية ساطع الحصري القومية ، ف. المنصور . البيت الابيض والصهيونية واسرائيل ، مصطفى كركوتي . تهليلة الموت والشهادة ، الياس خوري .

٢٠٥ **رسائل اعلامية** : الصحف الغربية واحداث ايلول ، م. ش. المهرجان الدولي الاول لافلام وبرامج فلسطين ، سفيان الرمحي . النشاط الصهيوني في اليابان ، مراسلنا في طوكيو . أصداء ميونيخ في الساحة الفلسطينية في كندا ، مراسلنا في كندا .

٢٢٣ **شهريات** : (١) المقاومة الفلسطينية ، ب.ح. (٢) القضية الفلسطينية عربيا ، ناجي علوش . (٣) القضية الفلسطينية دوليا ، د.ت. (٤) المناطق المحتلة ، ع.م. جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية وآخر بالعمليات التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٣/١٠ — ١٢/١١/ ١٩٧٢ ، غازي خورشيد .

٢٤٢ **اسرائيليات** : م. د.

٢٤٨ **تقرير خاص حول مؤتمر القنمية الاردني** ، ا. م.

دراسات توفيق كنعان في الفولكلور الفلسطيني

عمر سرحان

لا نعرف الكثير عن الحياة الشخصية للدكتور توفيق كنعان ، رائد حركة احياء الفولكلور الفلسطيني ، وان كنا نملك مادة وفيرة من كتبه ومقالاته التي استمر ينشرها تباعا ابتداء من العشرينات من هذا القرن . وقد كان يعمل طبيبا في المستشفى الالماني في القدس . واصبح في عام ١٩٢٧ رئيسا لجمعية الاستشراق الفلسطينية . ويبدو ان الدكتور كنعان نشر معظم دراساته وابحاثه باللغتين الانكليزية والالمانية(١) وان المادة الوفيرة التي جمعها عن ملامح الحياة الشعبية الفلسطينية كانت مكرسة لتعريف الانسان الغربي بحياة سكان فلسطين ـــ الاراضي المقدسة .

وتقول د. هيلما جرانكفيست الباحثة الفنلندية المتخصصة في دراسة الحياة الشعبية الفلسطينية ان د. توفيق كنعان باحث محنك تمرس في دراسة المأثورات الشعبية الفلسطينية منذ فترة طويلة . وتصفه بأنه صديق قديم لها تعرفت عليه اثناء عملها في ميدان الفولكلور الفلسطيني في الفترة بين عامي ١٩٢٥ ـــ ١٩٣١ . وفي عام ١٩٥٩ قابلته جرانكفيست ثانية عندما زارت القدس مجددا . وتقول جرانكفيست ان الرجل اذ ذاك كان مريضا . وكان فقد بيته ومكتبته ومجموعاته ومخطوطاته عندما اصبح بيته في المنطقة الحرام في القدس بعد حرب عام ١٩٤٨ . ومع ذلك فهي تشهد له في ذلك الوقت بأنه ظل على نشاطه المعهود يقرأ ويكتب ويجمع المادة الفولكلورية الخام ويلقي المحاضرات في هذا المجال .

ونحس بذلك الحماس المتوقد لدى الدكتور توفيق كنعان والرغبة الصادقة في جمع ملامح الحياة الشعبية في ما يكتبه في مقدمة كتابه « المزارات والاولياء المسلمون في فلسطين » حيث يقول : « ان الملامح البدائية لفلسطين تختفي بسرعة كبيرة . ولن يمضي وقت طويل حتى تتلاشى هذه الملامح نهائيا . ولذلك فانه من واجب كل طالب ودارس فلسطيني متخصص في دراسة الفولكلور ان لا يضيع أدنى وقت وان ينشط لجمع العادات والمعتقدات الشعبية والملامح الفولكلورية الدارجة في فلسطين » . ويضيف الدكتور كنعان في مكان اخر من المقدمة فيقول : « وانا كابن لهذه البلاد شعرت انه من واجبي أن أعاون في هذا الجهد العلمي . وبما انني لا ادعي انني دارس محترف فانني أحاول هنا أن أضع المادة الفولكلورية الخام كما جمعتها تاركا للدارسين المحترفين امور تفسيرها ومقارنتها » .

وتأتي دراسة الكاتب الحالي لاعمال توفيق كنعان المنشورة بالانجليزية كمحاولة اولية لنفض الغبار عن تلك الاعمال الاصيلة تمهيدا لنقلها او نقل الافكار الرئيسية فيها الى اللغة العربية والتنويه بأبرز ملامح الحياة الشعبية وعلى الاخص منها المعتقدات الشعبية التي تبرز الثقافة الاساسية والبدائية للانسان الفلسطيني . وتكمن اهمية المادة التي جمعها الدكتور كنعان في أن هذه المادة قد جمعت في وقت مبكر من هذا القرن ، ذلك الوقت الذي عاش فيه العديد من الرجال والنساء المسنين الذين عاشوا ومارسوا تلك المظاهر الحياتية التي اثبتها لنا الدكتور توفيق كنعان . ومن جهة اخرى

ان الكاتب الحالي يشعر انه من الضروري جدا أن يلفت انتباه المؤسسات الثقافية الوطنية والافراد ذوي الاهتمام والغيرة على تراث الشعب الفلسطيني الى اهمية مثل هذه الدراسات التي تصور طابع الشعب وتخلق الصلة المعنوية بين الانسان الفلسطيني المشرد وبين أرضه المحتلة التي يحاول الاعداء ان يطمسوا معالمها ويذيبوا شخصيتها تمهيدا لابتلاعها وانكار حق اهلها فيها . ان اثبات مفردات الحياة الشعبية الفلسطينية في عمل موسوعي كبير مدعم بكشف بالمراجع الاجنبية والعربية والتي تعرضت لدراسة الحياة الشعبية الفلسطينية وخاصة ما نشر منها قبل الهجمة الامبريالية الصهيونية على أرض فلسطين يمكن ان يضع أمام القارىء العربي والاجنبي صورة وثائقية عن حياة الشعب الذي يعيش الان في المنفى وتوضح العلاقة الوثيقة بين الناس المشردين وأرضهم المحتلة .

المزارات والاولياء في فلسطين(٢)

تعتمد دراسات الدكتور كنعان لهذا الموضوع على زيارته وملاحظته الشخصية لـ ٣٢٥ مزارا في فلسطين ، كما انه جمع معلومات وافرة عن ٣٤٨ مزارا اخر . ويقول د. كنعان انه كان يحضر الاحتفالات والاذكار والموالد التي كانت تقام في تلك المزارات كما جمع مجموعة كبيرة من الحكايات التي تفسر الظواهر المتعلقة بموضوعه ، واعتمد في دراسته على مجموعة من الأشعار الصوفية والمدائح والامثال والاقوال المأثورة . وكانت لديه مجموعة من الحجابات التي صنعها المشايخ بهدف البركة والعلاج الشعبي . ويقول د. كنعان عن طبيعة دراسته : « ان هذه الدراسة توصل القارىء بشكل مباشر للحياة اليومية في فلسطين ، وتوضح كل ما هو غامض في اذهان الناس في مجال المعتقدات والخرافات الشعبية . كما تعطي هذه الدراسة مقارنة مع ما كان سائدا في الازمان البدائية ، وتظهر ان العديد من المعتقدات والخرافات ظلت منذ الاف السنين عالقة في اذهان الناس في الوسط الشعبي » . ويعرف الدكتور كنعان المزار ويقول انه لا يعني بالمزار ذلك المكان الذي يدفن فيه نبي أو ولي من أولياء الله المعروفين فحسب بل يعني بالمزار كل حرم او معبد او ضريح أو شجرة او شجيرة ، او كهف او نبع او بئر أو صخرة والتي يوليها الناس تقديسا أو احتراما خاصا سواء كان ذلك يعتمد على معتقدات دينية او خرافية .

وبعد ذلك يفيض المؤلف في دراسة مواقع المزارات المنتشرة في فلسطين وانماطها ويدرسها من الناحية المعمارية والمعتقدية ويوضح وجود النموذج الامثل للمزار الذي يضم ضريحا وقبة ومقاما ، وتلك المزارات التي لا تحوي ضريحا وتلك التي هي مجرد « حويطة » أو كومة من الحجارة . ويعدد المزارات بأسمائها ومواقعها في فلسطين . ويتحدث المؤلف عن الطقوس والممارسات الدينية التي يمارسها الشعب في هذه المزارات والتي تتلخص في أداء العبادات وقسم الايمان والوفاء بالنذور وطلب البركة والشفاء . ويذهب الفلاح الفلسطيني الى المزار للحصول على البركة التي تشع من المكان المقدس لكل شخص يتصل به او يمر بيده على الستائر والضريح والبناء . كما اعتاد الناس أن يودعوا ممتلكاتهم المنقولة لتكون في حمى الولي ، اما الممتلكات غير المنقولة مثل المحاصيل في الحقول فانهم يضعونها « بوجه الولي » اي يعلنون انها تحت حمايته فلا يجرؤ احد على مسها .

ومن الممارسات الشعبية في المزارات ذات الصبغة السحرية ربط الخرق بنوافذ المزار واشجاره . ويعلل المؤلف هذه الظاهرة فيقول انها تهدف الى اثبات زيارة الانسان للمقام وتذكرة الولي بالزائر ورغباته . ويربط المريض الخرقة ويقول : « رميت عليك حملي يا ولي الله » . وهذا النوع من الممارسة الشعبية يسمى بالسحر الاتصالي . اذ ان كل شيء كان على اتصال بشخص ما او كان له به علاقة سوف يستمر بحمل العلاقة

مع ذلك الشخص . وهكذا تظل الخرق تحمل رغبات الشخص الزائر وأمله بالشفاء . وبمرور الوقت تأخذ الخرق شيئا من قوة الولي وتنقلها للمريض . ويذهب الفلاح لزيارة أولياء الله في مزاراتهم طالبا الشفاء وواعدا الولي بتقديم أضحية اذا من الله بالشفاء . وقد يأخذ الفلاح شيئا من الزيت او القماش او الماء او الحجارة من المزار او مما يجاوره ويستعمل كل ذلك كوسائل للحصول على الشفاء . كما يذهب الناس ومعهم أحد المتهمين بارتكاب ذنب ما ليقسم اليمين في المزار . وفي ذلك تأكيد للمتهم بأن الولي سيتسبب في ايذائه اذا كان كاذبا . ويورد المؤلف نص احد الايمان الشعبية التي كان يؤديها المتهم في المزار . يقول اليمين : « والله ومحمد رسول الله / والله وما اعز من الله / وحياة هالعود والرب المعبود والنبي داهود / والصليب الحي / وحق القبلة المحمدية / وحق هالكنيسة والساكنين فيها / وباب هالشرق معبد النصارى / والكعبة / والمهد الشريف / والمصحف / ولحية النبي / وحق عوينة هالشمس المقربة لطاعة ربها / وحياة هالشارب / وحياة الماي المطهرة الحي والميت / وحياة الماي الجارية والسموات العالية / وحياة هالشجرة اللي تشرب من عرقها وبتسبح ربها / وحياة هالبساط الاخضر اللي طلع من الارض خرسا طرشا وحق من يعلم كم ورقة في هالشجرة وكم شعرة في هالحيوان ... » .

وتقدم النذور للمزارات ولوجه الشيخ وفاء بوعد قطعه مريض او صاحب حاجة . ويقول الشخص « نذرن علي لاقدم كذا وكذا اذا شفي ابني او حملت زوجتي او ... » . ومن الاشياء التي تقدم وفاء بالنذور تقدمات لتجميل المزار واصلاح بنائه ، كما تقدم الاضحيات أو المساعدات المالية للفقراء باسم شيخ المزار او الولي .

المعتقدات الشعبية حول الماء والابار والينابيع(٢)

لقد احتل الماء وما زال مركزا ممتازا في حياة الشعب الفلسطيني وسكان الارض العربية نظرا لندرته . واتخذ تلك الاهمية الكبيرة بحيث اصبحت استعمالات تمس أمورا مقدسة وممارسات اعتقادية تتصل بالطب الشعبي والاحتفالات الدينية ومضامين الخرافات . ولم يقتصر استعمال الماء ضمن هذه المعتقدات على الاحياء بل الاموات يحتاجون الماء . ويقول المعتقد الشعبي ان ارواح الموتى تنطلق ايام الجمع وهي تحمل « ظروف » الماء لتملأها من الينابيع .

يناقش الدكتور كنعان في دراسته لهذا الموضوع مسألة وجود « الينابيع المسكونة » والتي مؤداها ان ينابيع معينة تسكنها ارواح خيرة او ارواح شريرة . ولا تظهر هذه الارواح الا لشخص وحيد في النهار او في ساعات الليل . ومن أهم الاسباب التي تجعل الناس يعتقدون أن نبعا معينا مسكونا هي ان يكون النبع في مكان مهجور او في غابة او دغل كثيف الاشجار ، وان لا تصل اشعة الشمس الى مصدر النبع . ويتحقق ذلك الانعزال بوجود كهف أو شق من الصخور او قنال قديم يكون مدخل النبع . وتبدو هذه الظروف مواتية ومحببة للارواح وتكون على اتصال بداخل الارض وبالنجم « زحل » . ويستعرض د. كنعان الينابيع التي تنبثق بشكل دوري ، اي انها تدفع مياهها في وقت ما في حين تتوقف عن الجريان في وقت اخر . وتلك مسألة أثارت خيال الناس وانبثقت عنها معتقدات خرافية جميلة . لقد وجد الناس تفسيرا ذا صلة بالاعتقاد بالارواح الحارسة للمياه وهو اعتقاد منسجم مع الموروثات الدينية . انهم يعتقدون ان العين الدورية تسكنها اثنتان من الارواح : الأولى روح بيضاء والثانية روح سوداء . وكلا الروحين في صراع سرمدي دائم . وعندما تنتصر الروح الحرة تفسح المجال امام الماء لينساب لمنفعة البشرية العطشى . ولكن سرعان ما تنهض الروح المستعبدة السوداء وتستأنف المعركة . وعندما تنهزم الروح الحرة يغلق منفذ الماء .

ويعطي د. كنعان تفسيرا مبنيا على معتقد شعبي لظاهرة الينابيع الساخنة . يقول : « هناك عدد كبير من الارواح تسخن المياه باستمرار قبل ان تنفذ الى سطح الارض . ويستحضر الوقود من مسافة بعيدة . لقد أمر الملك سليمان الجن أن يقوموا بهذا العمل ليمنحوا سكان فلسطين حماما طبيعيا ساخنا وبما ان الارواح عمياء وطرشاء ولا تعلم بموت سيدها الملك فقد ظلت تخشى عقابه واستمرت تقوم بعملها . ويسود اعتقاد مماثل حول « الحمام التركي » اذ يقال : « سكانه بحموه » اي ان الارواح التي تسكنه هي التي تسخنه .

ويرى د. كنعان أن هناك صلة بين المعتقدات الحالية للشعب الفلسطيني وبين المعتقدات الاثنولوجية القديمة لسكان فلسطين . وهو يرى أن الينابيع التي يعتقد الان بأنها مسكونة بالارواح كانت في الماضي ينابيع مقدسة ومكرسة لعبادة الالهة المتعددة في فلسطين . وان ارواح الالهة لا تزال تزور تلك الينابيع — على حد المعتقد الشعبي — وان تغيرت اشكالها ، وقد ظلت الفكرة الاساسية سائدة . ويعتبر د. كنعان المعتقدات الحالية كرواسب متبقية من الممارسات الدينية القديمة في فلسطين . ويفسر ذلك ان العديد من الينابيع الموجودة حاليا ظلت تؤدي اغراضا علاجية كما هو الحال منذ عهد التوراة . ومن ذلك عين سلوان وحمام ستنا مريم وعين ام الدرج وحمام الشفا . وللسبب نفسه نجد ان هناك تقدمات تقدم للارواح حارسة المياه ، فتقدم الشموع والازهار لحمام ستنا مريم وتقدم المصابيح لغير هذا النبع . وتؤدى صلوات وادعية ويحرق بخور عند بعض الينابيع كما هو الحال عند نبع جفنا . وتسمع عند بعض الينابيع صلاة وصوت جمهور غير مرئي .

ان ملاحظات د. كنعان حول الابار المسكونة بأرواح خيرة وشريرة تدور حول الخوف من الارواح بنوعيها ، واذا كانت ارواح أولياء الله تقدم العون للاخيار فانه لا يجوز الاقتراب منها في حالة لا تظهر عدم الاحترام لاولئك الابرار . ولذلك لا يجوز لامرأة مؤمنة ان تقترب من نبع مقدس او تمسه وهي غير طاهرة . واذا حصل ذلك فان الولي سيعاقب مثل هذه المرأة باصابتها بمرض في جسدها . وقد يعاقب البلد بأكمله ويوقف جريان النبع . ولذلك لا يجرؤ احد على الاقتراب من نبع تسكنه روح رجل مقدس دون ان يذكر اسم الله او اسم الولي او القديس الذي يسكن ذلك المكان وخاصة اذا كان الوقت ليلا او كان الشخص يسير ليلا بمفرده في مكان مهجور . واذا لم يفعل الشخص ذلك فانه سيلقى المتاعب . أما الارواح الشريرة التي يمكن ان تصادف شخصا ما فانها قد تتبعه وتصيبه بالمرض والضعف وحتى الموت . ويمكن ان تقوم هذه الارواح بتجفيف مياه هذه الينابيع وخاصة اذا اقتربت منها امرأة غير طاهرة . وفي جفنا فان القسيس يذهب الى البئر الجاف فيتلو الدعاء ويحرق البخور ليسترضي الجنية او يجبرها على اطلاق سبيل الماء .

وهكذا يكون الخوف من الارواح بنوعيها القاسم المشترك للمعتقد الشعبي حول هذه الكائنات التي تحتل مكانا غامضا جدا في اذهان الناس .

الاواني السحرية(٤)

طاسة الرجفة او طاسة الرعبة اناء ذو قدرة سحرية مبنية على الكتابات المثبتة عليه . واذا ما شرب من مائه الشخص الخائف فانه يشفى . وقد اجرى د. كنعان دراسات على ٥٨ عينة من الاناء المعروف بطاسة الرجفة (أو طاسة الرعبة ، الخوفة ، الخظة) . ولا يتوقف أثر هذا الاناء السحري على شفاء المصاب بحالة الخوف انما هناك العديد من الامراض التي يشفى اصحابها اذا ما وضعوا ماء في هذه الطاسة وشربوا منه . وقد أورد المؤلف عشرات من الكتابات التي نقشت على تلك الاواني والتي توضح

القدرة الشفائية السحرية لتلك الآنية . وانقل للقارىء احدى هذه الكتابات كما اوردها المؤلف حرفيا : « وباذن الله تعالى تشفي هذه الطاسة النادرة من السموم كلها وقد جمع فيها منافع مجربة وهي للسعة الحية والعقرب والحمى ... للمطلقة والفرس المعلة للكلب وللمغص وللقولبخ للشقيقة للطحال والقوة ... الدم ولابطال السحر وللعين وللنظر وللرمد والنزلة والرياح والارواح والبواسير للخلط البارد ولسائر العلل » . وتتضمن كتابة اخرى على احدى هذه الاواني رموزا غير مفهومة وان كانت ذات دلالات سحرية عند كاتبها . من ذلك هذه الكتابة التي تقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . اذا السماء انشقتواذنت لربها وحقت واذا الارض مدت والقت ما فيها كذلك تلقي الحامل للجنين سالما باذن الله والله يخرجهم اخراجا وان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا . انصرف أيها القولبخ يانوح بنوح كلوخ كلخ الم المر ح م ع س ق ك ه ي ع ص ط ه س م ي س ن » .

ويفسر د. كنعان دور الآنية السحرية تفسيرا يتصل بالاعتقاد بقدرة النجوم والذي يلعب دورا مهما في حياة الناس في الوسط الشعبي الفلسطيني . وهناك اعتقاد ان لكل شخص برجا خاصا ، وهذا البرج يحكم مجرى حياته . وان علاقة هذا البرج مع غيره يسبب لصاحبه الخير او الشر . ولذلك فان على كل شخص ان يعرف نجمه ، ولما كان ذلك صعبا فانه يشرب من « الطاسة » والتي فيها الابراج الاثنا عشر والمتضمنة برج ذلك الشخص بالتاكيد . ويورد المؤلف حكاية عن أصل هذه الطاسة فيقول ان الجن اعتادت ان تستعمل مثل تلك الطاسة في الاستحمام . وذات مرة ذهب جن ليستحم بالقرب من نبع وبعد أن انهى الاستحمام نسي الوعاء السحري بالقرب من النبع . واتفق ان مر بالمكان شخص محظوظ ووجد الوعاء فأخذه . وفي وقت قصير تمكن ذلك الرجل من اكتشاف مميزاته . وبمرور الزمن صنعت نسخ من الاصل واثبتت ان لها ميزات الاصل نفسها . وتدل الحكاية على ان القوة السحرية لا تعود لمعدن الاناء وانما للكتابات الموجودة عليه والمتضمنة كلمات من القرآن وأسماء الله والملائكة والكواكب والنجوم والجمل السحرية . وهنا يكمن السبب في أن طاسة الرجفة لا يجوز أن يمسها سوى شخص طاهر كما أنها تلف وتحفظ في مكان نظيف طاهر وباحترام كبير . واذا اضطر شخص غير طاهر لنقلها فانه لا يمسها بل يلفها بقطعة من القماش . وهناك من يعتقد ان هذه الطاسة ربما فقدت بعض قوتها اذا تعرضت للشمس الساطعة . وتستحضر الان معظم نماذج طاسة الرجفة بواسطة الحجاج الذين يذهبون الى مكة لاداء فريضة الحج . ويعتبر الناس ان تقديم هدية مثل طاسة الرجفة شيء ذو قيمة كبيرة جدا . ولا يقتصر استعمال طاسة الرجفة على الوسط الشعبي المسلم . وتتضمن قائمة الاواني التي أجرى عليها الدكتور كنعان دراساته أواني مأخوذة من أسر مسيحية .

البيت العربي الفلسطيني(٥)

كرس الدكتور كنعان الجزء الاكبر من دراسته للتحدث عن البيت العربي الفلسطيني من حيث معماره ومواد بنائه . واستعرض لذلك البيت الحجري والمبني من الطين والبيت القروي والبيت في المدينة ودرس الخيمة واعطى صورة واضحة عن المعمار الفلسطيني. وفي الجزء الاخير درس د. كنعان الجوانب الفولكلورية للبيت مكرسا معظم ما كتبه للمعتقدات الشعبية المتعلقة بعمارة البيت وسكناه والتصور الشعبي للامور المتعلقة بذلك .

يقول د. كنعان ان ابرز المناسبات الاحتفالية في الحياة الشعبية الفلسطينية هي : الزواج ، وولادة الذكور وبناء بيت جديد . وعندما ينتهي المرء من سقف بيته يجتمع لديه الاهل والاصدقاء والجيران لتناول وجبة احتفالية وتقديم الهدايا بهذه المناسبة الطيبة . ان الدار تحتل مكانا مرموقا في نفس الانسان الفلسطيني فهي تمثل ما يستره ويستر

اهله وتمثل الذكريات بشتى اشكالها . وهو يحن اليها اذا غادرها ويتمنى العودة اليها واعدا اياها بأجمل الزخارف والمحبة القلبية . ويتضح ذلك في هذه الاغنية الشعبية التي يسجلها د. كنعان :

يـا دارنـا يـا ام الحجـر الاحمـر	احنا رحلنا وغـيرنا اتوطن
يـا دارنـا يـا ام الحجـل والطوق	يا عاليه وامشرعة لفـوق
يـا دارنـا يللـي اربينـا فيكـي	لا عادت تآوينا ولا اتآويكي
يـا دارنـا ان نزلوك عربـان غيرنـا	اتوصيهم يا دار حتى نعاود
لاجيـب لـك يا دار حملـين نيلـة	وانقش يا دار نقش العرايس

ويستعرض الدكتور كنعان العديد من المعتقدات الشعبية المتعلقة بالبيت . يقـول ان هناك معتقدا سائدا في الوسط الشعبي الفلسطيني مؤداه ان كل بيت تسكنه مخلوقات خارقة للعادة ... وتوجد هذه المخلوقات على الاخـص في البيوت الخالية والخربـة والحديثة غير المأهولة . ولذلك يفترض في كل ساكن جديد ان يسترضي تلك المخلوقات . وتبدأ اجراءات ترضية هذه الكائنـات ومحاولة كف شرهـا منذ البدء في البناء بعـد الاساس . اذ يجب اذ ذاك ذبح ذبيحة كتقدمة للارواح ساكنة المكان تسمى « ذبيحـة الاساس » . ويستدعي المسيحيون الخوري ليبارك الاساس ويلقي عليه مياها مقدسة . وعند وضع حجر الاساس يضع صاحب البيت تحت الحجر قطعة عملة فضية باعتبـار أن ذلك يشكل فألا حسنا يدل على « الفضا » اي النور . وعندما يعقـد البناء شاشية باب البيت فانه يعلق على الحجر هناك خرزة زرقاء ، وثوما وقطعة من الشب وبيضة مفرغة . وهناك من يعلق شكل يد بشرية او صليبا . وهناك ايضا ذبيحة العقد والتي تذبح عند انهاء العمل في السقف . وقد اعتاد البدوي ايضا ان يذبح ذبيحة كلما نصب خيمته في مكان جديد للاسباب والمعتقدات نفسها السالفة الذكر .

ويروي الدكتور كنعان أنه كان هناك معتقد قديم مؤداه انه لن يخلد البناء الا اذا دفن في الاساس انسان او جزء من انسان !! وخاصة اذا كان البناء حماما عاما او عمـارة ذات صلة بالجمهور(٦) . وقد حلت فيما بعد عادة ذبـح حيوان بدلا من تلك العـادة . وهناك المعتقدات الشعبية ذات الاصل الاسلامي والتي تفرض على ساكن البيت الجديد أن يدعو شيخا ليقرأ القرآن أو يدعو الدراويش لاقامة الحضرة وهذه العادة ما تـزال موجودة حتى الان . ويعلق الناس راية بيضاء عـلى ظهر البيت وذلـك تيمنا برايـة الرسول محمد (ص) البيضاء .

دراساته الاخرى

تعتمد دراسات توفيق كنعان على رصد المعتقدات الشعبية ومن هذه المعتقدات التي القى ثقله الى جانبها مسألة الثنائية في المعتقد الشعبي الفلسطيني . فهو يدرس النور ويقابله بالظلام(٧) . ومن هذا القبيل درس الثنائيات التاليـة : الخير والشر ، الابيض والاسود ، الملائكة والشياطين ، العالم العلوي والعالم السفلي ، الاله مقابل ابليس . وهو يعتقد ان دراسة ظاهرتي النور والظلام يمكن ان تؤدي الى نتائج كبيرة وتوضح مواقف جمة . وبعد ان يتحدث د. كنعان عن سبل الانارة الشعبية والمصابيح الساذجة ، وبعد أن يتحدث عن خوف الانسان البدائي من الظلام فانه يحشد عشرات الامثلة من الحياة الشعبية التي تتصل بموضوع . وذلك يذكرنا بالمنهج المشهور الذي اختطه سير جيمز فريزر في الدراسات الانثروبولوجية الذي يعتمد على دراسة فكرة معينة من خلال ايراد حشد هائل من الامثلة الموضحة لها في بيئات انثروبولوجية شتـى . ومن هذه الامثلة العديدة المتعلقة بمسألة النور والظلام رصد كل التعابـير الشعبية المتصلـة بكلمات : مصباح ، ضوء ، قمر ، شمع ... الخ وفي بعـض الاحيـان نحس بتشعب الموضوع واتخاذه مسارات شتى . وعلى سبيل المثال فانه عندما يتحدث عن الزيت

كمادة اساسية تشعل للحصول على النور فانه يتحدث عن القيمة الغذائية للزيت من وجهة نظر الاقوال الشعبية المأثورة كما يسهب في الحديث عن اعتقاد الناس ببركة شجر الزيتون . ومن وجهة نظر الكاتب الحالي — وهي لا تتعارض مع ما أراده د. كنعان — فان المادة الخام التي خلفها لنا كاتبنا تشمل ثروة فولكورية لا ينضب لها معين تحتاج الى من يشمر ساعد الجد للعمل على جلاء ملامح الفلاح الفلسطيني ونظرته الخيرة . من هذا المنطلق يدرس توفيق كنعان الموضوعات الاخرى مثل فولكلور النبات(٨) وفولكلور الفصول(٩) ونحن نرى انه يتناول اسم نبتة معينة ثم يدرس الامثال والاغاني الشعبية والاقوال المأثورة المتعلقة بها . ومثلا نراه يدرس وجهة النظر الشعبية حول فترات الحياة المختلفة وهو يورد نبتة « الخيار » . وانقل عنه هذا النص : ابن عشرة مثل الخياره المقشرة ، ابن عشرين بماشر المجانين ، ابن ثلاثين زهر البساتين ، ابن اربعين من الكاملين . ثم يستفيض د. كنعان في دراسة النسخ الاخرى من هذا النص وتفسيرها . كما يقوده الحديث عن النبات من وجهة النظر الشعبية الى المعتقدات الشعبية المتعلقة بها فيرصد ظاهرة ارتباط النبتة بالمزارات واضرحة الاولياء ومسألة تقديس الاشجار التي هي مستمدة من القدرة الالهية المتمثلة فيها . ويفسر ذلك كثرة الزخارف الشعبية في البيوت والمزارات وعلى الملابس والتي تمثل اشكالا شتى من الاشجار .

ويستطرد كنعان فيدرس نباتات وردت في الكتب المقدسة ونبتت حولها معتقدات وخرافات كثيرة مثل نبتة القمح التي كانت تنتصب في وسط جنة عدن والتي قدمت الافعى منها طعاما لحواء — أم البشر — . وعندما طرد آدم من الجنة أرسل الله اليه بواسطة الملاك جبريل حبات القمح ملفوفة بسبع مناديل من الحرير . وقام آدم بزرع هذه الحبوب والتي اتخذت شكل حرف الالف (ا) وهي الحرف الاول من لفظ الجلالة (الله) . ولذلك فان القمح « نعمة من الله » ويحرص الفلاح على الا يدوس اية قطعة خبز مهما صغرت . واذا ما وجد الفلاح شيئا من الخبز وقد سقط على الارض فانه يتناوله بكل خشوع واحترام ويقبله ويضعه على جبينه ثم يودعه جانبا بحيث لا يتعرض لان يداس بالاقدام . وتأتي مادة فولكلور الفصول كتتمة لمقالة د. كنعان المنشورة بالالمانية حول هذا الموضوع(١٠) وكذلك استكمالا لما كتبه كتاب آخرون مثل بوهر(١١) وسونن(١٢) وستيفان(١٣) حول فولكلور الفصول في فلسطين . ويدور معظم هذه المادة حول أسماء الشهور والعطل والمواسم والمناسبات على مدار السنة وما ارتبط بها في الذهن الشعبي من افكار وممارسات ومعتقدات . أما دراسة د. كنعان للمعتقدات والممارسات الدينية فيما يتعلق بتصور قدرة الله(١٤) فيمكن اعتبارها ذات صلة بما كتبه عن الاولياء وهي حافلة بتصور الانسان لقدرة الله ودوره في مسائل الخير والشر والرزق والفقر والمرض والشفاء . وغني عن الذكر أن هذه التصورات تعزي كل ذلك لله . ويبدو ان جهد الباحث الفولكلوري ازاء مثل هذه الدراسات يجب ان ينصب على تمييز ما هو دين رسمي عما هو فولكلور . وهذه ليست مهمة سهلة . ونحن نعرف أن الكثيرين من الكتاب الغربيين الذين درسوا الفولكلور الفلسطيني خلطوا بين المعتقدات الشعبية المنحدرة من الشروح الدينية وبين الدين الرسمي .

وآخر الموضوعات التي درسها د. كنعان والتي هي موضوع استعراض الكاتب الحالي لاعمال ذلك الكاتب دراسته عن طبوغرافيا وفولكلور البتراء(١٥). وتكمن اهمية هذا الموضوع بدراسة الحياة الاجتماعية لبدو البتراء وصلة ذلك بحياة بدو جنوب فلسطين ، اذ ان هناك علاقات وطيدة وحركة ارتحال تمت على طرفي وادي عربة وجعلت الاراضي على طرفي الوادي منطقة فولكلورية واحدة ذات صفة عربية بدوية .

يسكن اللياثنة ، بدو البتراء ، في وادي موسى وهم ذوو طبيعة بدوية الا أنهم يمارسون

الزراعة شانهم في ذلك شأن الفلاحين . ويتحدث د. كنعان عن ملامح الحياة اليومية لهؤلاء الناس فيقول انهم يعيشون حياة صعبة ويقاسون من الحاجة والفقر المدقع ، ويعتمد مجتمعهم على سيطرة الرجل . ويتم زواج البنت عندهم على رغبة وليها ودون استشارتها ولا تحصل على شيء من المهر . وقد يمنحها والدها هدية وهي عبارة عن بعض الحيوانات أو قطعة من الارض . ويشيع بين الليائنة زواج البدل بحيث يزوج الواحد منهم اخته أو قريبته لشخص ويتزوج هو أخت ذلك الشخص او قريبته دون وجود مهر . ويندر أن يتم الزواج بالخطف ، وفي هذه الحال يسمون الفتاة التي تهرب مع حبيبها « طموح » . وهناك عدد ضئيل من بنات المشايخ لعبن دورا كبيرا في حياة القبيلة وفي هذه الحالة يسمى الشيخ بكنية تعود لتلك البنت . وغالبا ما يقضي الرجال وقتهم في كسل دائم وثرثرة متصلة .

ويعتبر الليائنة الاولياء مخلوقات ذات قوة خارقة ودورهم هـو مساعدة الناس عند الحاجة . ولذلك فهم يطلبون منهم العون أكثر مما يطلبونه من الله . ويقول د. كنعان انهم قليلو المعرفة بالدين فقد سأل هو شخصيا خمسة منهم أن يتلوا سورة الفاتحة ولكنهم لم يكونوا ليعرفوا تلاوتها . ويصدق هذا القول علـى البدو المقيمين في النقب واطراف سيناء فمعرفتهم بالدين جد ضئيلة ان لم تكن أحيانا معدومة .

ولم يجد د. كنعان عند هؤلاء البدو أي ممارسات أو طقوس في مزار أو كهف أو ضريح لولي .. ولكنه لاحظ انهم يقدسون الموتى مـن الاشخاص ذوي الدور الكبير في تاريخ العشيرة اثناء الحياة . ويؤمنون بالجن ويصفونه بانه يشبـه الغول كما هو ماثل في الحكايات الشعبية الفلسطينية .

منهج البحث عند توفيق كنعان

يمكن القول ان دراسة توفيق كنعان للفولكلور الفلسطيني هي دراسة وصفية . وهو يعتمد على تناول زاوية معينة بحيث يورد كل التفاصيل المتعلقة بها والتي يبدو انه جمع الكثير منها بطريق الاستجواب الشخصي . اما الجزء الآخر فقد اعتمد فيه على العمل المكتبي . ويبدو انه رجع الى العديد من المراجع الاجنبية والتي حاول ان يصحح ما جاء فيها على ضوء معرفته الاصيلة بالحياة الشعبية المحلية .

وقليلا ما يحاول د. كنعان أن يربط بين المادة التي يجمعها وبين مثيلاتها سواء أكان ذلك في بيئات أخرى ام البيئة الفلسطينية القديمة . وهو ان حاول ذلك فانه يقارن مع عهد التوراة أو مع ما جاء في القرآن الكريم . الا ان د. كنعان يكتب وقد اتضح في ذهنه المنهج الوظيفي بحيث يبذل جهدا طيبا في تفسير المادة التي يتحدث عنها من خلال ابراز وظيفتها في الحياة الشعبية ودورها في توجيه افكار الناس وتكوين مفهوم معين مرتبط بممارسات معينة متفق عليها لدى الوسط الشعبي . ولذلك وجدنا انه القى ثقله الى جانب دراسة المعتقدات الشعبية لعلمه الاكيد أن هذه المادة ذات صلة بالواقع المعاش للناس فهي تؤثر فيه وتوجهه وتحكم مسار الحياة اليومية .

ولم ينس د. كنعان أنه يكتب عن تراث بلد مهدد بأخطار التذويب والابتلاع ، ولذلك نراه يربط بين المادة التي يجمعها وبين الارض ، ويخلق الصلة بينهما بحيث يمكن القول ان هؤلاء الناس — اهل فلسطين — هم أصحاب هذه الافكار المرتبطة بهذه الارض والتي وجدت الصلة عبر هذا الحشد الجغرافي العظيم مـن المزارات والاضرحة والكهوف والينابيع والآبار والاشجار ... الخ .

وبعد ، فان اعمال د. كنعان لهي اشبه بعمل موسوعي يحتاج الى من يعيد تنظيمه ويضيف اليه لتظهر « موسوعة الفولكلـور الفلسطيني » التي تبـرز وجه الشعب الفلسطيني صاحب الارض العربية الفلسطينية ومبدع تراثها وثقافتها الاصيلة .

الحواشي

١ — من ابرز مؤلفات الدكتور توفيق كنعان بالالمانية كتابه :
Aberglaube und Volksmedizin in Lande der Bible

« الخرافات والطب الشعبي في فلسطين »

a) Der Kalender der Palästinenschen Fellachen.
b) Dämonglaube in Lande der Bible.
c) Die Neugeborenen in der Palästinenschen Volkssite.

اما دراسات توفيق كنعان بالانجليزية والتي هي موضوع هذه الدراسة فتضم كتاب :
Mohammeden Saints & Sanctuaries in Palestine.

واحدى عشرة مقالة اخرى نشرها في مجلة JPOS

٢ — *Mohammaden Saints And Sanctuaries in Palestine*, Luzac & Co., London 1927.

٣ — دراسة الدكتور كنعان حول هذا الموضوع في مقاليه :
a) Water And the Water of Life in Palestinian Superstition, *JPOS*, IX, 1929.
b) Haunted Springs and Water Demons in Palestine, *JPOS*, I, 1921.

٤ — درس د. كنعان هذا الموضوع في مقاليه :
a) Tasit Er-Radjfeh, (Fear Cup), *JPOS*, III, 1924.
b) Arabic Magic Bowls, *JPOS*, XVI, 1936.

كما استفاض المؤلف في التحدث عن هذا الموضوع في كتابه :
Aberglaube und Volksmedizin in Lande der Bible, Hamburg, 1914.

٥ — تناول الدكتور كنعان هذا الموضوع في مقالة من جزءين بعنوان :
The Palestinian Arabs House, its Architecture and Folklore, *JPOS*, 1937, Vol. XII, (223-247).

٦ — فصّل د. كنعان هذه الظاهرة في كتابه :
Dämonenglaube im Lande der Bible (38-39).

٧ — Light and Darkness in Palestinian Folklore, *JPOS*, XI, 1930.

٨ — Plant-love in Palestinian Superstition, *JPOS*, VIII, 1928.

٩ — Folklore of the Seasons in Palestine, *JPOS*, III, 1924.

١٠ — انظر مجلة : *Z.D.P.V.* XXXVI, 266-300

١١ — *Z.D.P.V.* XXXVIII, 54-57: Bemerkungen zu Dr. Canáan's Der Kalender des Palästinenschen Fellachen.

١٢ — Landwirtschafttiches vom see Genesareth, Das Heilige Land, Heft I, 1921.

١٣ — The Division of the Year in Palestine, *JPOS*, 159-170.

١٤ — More Palestinian Beliefs and Practices Relating to God, *JPOS* XIV, 1934.

١٥ — Studies in the Topography and Folklore of Petra, *JPOS*, IX, 1929.

الفنون الشعبية في فلسطين

بقلم

يسرى جوهرية عرنيطة

من منشورات مركز الابحاث في م.ت.ف. (ص.ب ١٦٩١ ، بيروت)

٢٥٦ صفحة ، ٨ ليرات لبنانية تضاف اليها اجور البريد الجوي : ١٠٠ ق.ل. في العالم العربي ، ٢٥٠ ق.ل. في أوروبه ، ٥٠٠ ق.ل. في سائر الدول .